جهود علماء المغرب في ترسيخ ثقافة الاعتدال

The Efforts of Moroccan Scholars in Consolidating the Culture of Moderation

د. عبد الله الجباري[1]

PhD. Abdellah Lajbari

ملخص البحث:

يتطرق المقال إلى دور علماء المغرب في ترسيخ ثقافة الاعتدال، وحمايتهم للمجتمع من التطرف والغلو، وذلك من خلال أربعة مداخل أساسية:

المدخل الأول: التركيز على العقيدة الأشعرية تدريسا وتأليفا، وقد بسّطوا المتن الأشعري للعامة والنساء من خلال منظومات ومختصرات ميسرة، كما بينوا خطر بعض الانحرافات العقدية.

المدخل الثاني: الفقه المالكي، الجامع بين النص والرأي والواقع، فرفضوا المذهب الظاهري رغم وجود مناصرين أقوياء له.

المدخل الثالث: التصوف، وذلك من خلال تدريس بعض متونه، أو شرحها، أو التأليف في تأصيل مقاماته.

المدخل الرابع: التربية بالقدوة، حيث ربطوا العامة بالنبي ﷺ من خلال التركيز على السيرة النبوية، تعريفا لهم بمقامه، ووجوب توقيره والتأدب معه، كما ربطوا العامة أيضا بالأولياء والصالحين، فعرّفوا بهم وبسيرهم في مؤلفات عامة وخاصة، كما كان العلماء مكثرين من زيارتهم والاقتداء بنهجهم.

وختم المقال بخلاصة وتوصيات.

[**الكلمات المفتاح:** الاعتدال - المذهب - الأشعري - المالكي - التصوف - القدوة]

Abstract:

This article addresses the role of Moroccan scholars in enhancing the culture of moderation, and protecting society from extremism and fanaticism. The approach they undertake is fourfold.

First: Teaching and writing about the Ash`ari doctrine. Along with their efforts to simplify the Ash`ari content for ordinary people through easy verses and summaries, Moroccan scholars equally strove to expose serious aberrations in the Islamic creed.

(1) باحث في العلوم الشرعية - المغرب.

Second: The significance of the Maliki jurisprudence which combines Scripture, opinion, and reality. It is noteworthy that Moroccan scholars also rejected a-ddahiri (the literalist) doctrine despite the presence of vigorous support for it.

Third: Adherence to Sufism, by teaching and explaining its texts, and articulating its precepts.

Finally: Education by example. Scholars linked common people to the Prophet [may God bless him and grant him peace] by focusing on his biography, and by instigating profound respect for his person in the hearts of Muslims. They also linked lay people to righteous and God-fearing scholars, often through narrating and studying their hagiographies, but also by visiting them and following their examples.

The article concludes with a summary and recommendations.

[**Keyswords**: Moderation - Doctrine - Ashaari - Maliki - Sufism - example].

مقدّمة:

تتعدد الفعاليات والنخب المسهمة في تشكيل وعي وعقل الشعوب، من رجال الثقافة والشعر والفن والصحافة والسياسة والحكام وغيرهم، ولم يشذ علماء الشريعة الإسلامية عن هذه القاعدة، حيث قاموا - من أجل ذلك - بأدوار متفاوتة، تختلف من قطر إلى قطر، ومن عصر إلى عصر، أما علماء المغرب، فتحملوا عبر العصور العبء الأكبر، والحظ الأوفر في تشكيل عقل الإنسان المغربي، حيث تلألأت أسماؤهم نجوما في سماء المجتمع، ونسجوا شبكات واسعة من العلاقات، جمعت بين العامة من حرفيين وصناع وتجار...، وبين النخبة من طلبة ومثقفين وحكام...، وكان انخراطهم في هذه الشبكات الاجتماعية انخراطا ذكيا ومدروسا وواعيا، فلم تكن علاقتهم الوثيقة والوطيدة بالقادة والسلاطين تحُول بينهم وبين العامة، فكانوا مختلطين بهم، مؤطرين لهم، وبعبارة موجزة، كانوا مثقفين عضويين حسب عبارة غرامشي، لأنهم كانوا رجال دعوة، ورجال دولة، ونماذج هؤلاء العلماء المغاربة لا يكاد يحصيهم العادّون، من أمثال:

- **أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت:544هـ)**، الذي كان مقربا من المرابطين الذين ولّوه خطة القضاء، وكان مسموع الكلمة من العامة في سبتة وغيرها، ولعل هذا وغيره جعل العلامة الحسن اليوسي يقول: «المغرب كله حرم لعياض»[1].

(1) شقور عبد السلام، القاضي عياض الأديب: 33.

- **أبو الحسن بن القطان الفاسي (ت:628هـ)** الذي كان ذا حظوة بالغة في البلاط الموحدي، تولى القضاء في عهدهم، وكان محافظ مكتبتهم، «وكان معظما عند الخاصة والعامة»[1].

- **أبو علي الحسن اليوسي (ت:1102هـ)**، كان ذا مكانة خاصة عند السلطان العلوي الذي يراسله ويسائله في قضايا عديدة، «وكان له أصحاب وأتباع، وإقبال من الناس»[2].

من خلال هذه النماذج وغيرها، يتبين كيف وُفِّق علماء المغرب في الجمع بين الحظوة لدى السلطان وحاشيته، وبين تشكيل وعي العامة والخاصة من الشعب، فكيف عملوا على تأطير المجتمع وتحصينه من الآفات الفكرية والانحرافات الحضارية؟ وما هي المقومات الأساس التي اعتمدوا عليها في ترسيخ ثقافة الاعتدال؟

بتتبع البيبليوغرافيا المغربية، يتبين أن العلماء المغاربة رسخوا ثقافة الاعتدال في المجتمع من خلال عدة مداخل، وهو ما سنعمل على مقاربته من خلال العتبات الأربع الآتية:

المبحث الأول: الاعتدال العقدي من خلال العقيدة الأشعرية

غرق كثير من المسلمين في «أوحال التوحيد»، فأصيب بعضهم بلوثة التجسيم والتشبيه جراء الغلو في الإثبات، وأصيب بعضهم بالتعطيل، وبقي المذهب الأشعري وسطا معتدلا بين التوجهين، وكان؛ إضافة إلى المذهب الماتريدي؛ مذهبَ جمهور أهل السنة والجماعة منذ عهد السلف، ونظرا لهذه المكانة المتميزة للمذهب الأشعري، اعتنقه جمهور علماء المغرب، وعملوا على نشره، بل بذلوا غاية وسعهم في ذلك، ويمكن رصد جهودهم في هذا المجال من خلال مطلبين اثنين:

المطلب الأول: نشر العقيدة الأشعرية تأليفا وتدريسا:

قد يجنح البعض إلى تحديد البواكير الأولى للعقيدة الأشعرية في الديار المغربية إبان عهد الموحدين، إلا أن بعض النصوص التاريخية والمتون التراثية تؤكد أن الدرس العقدي الأشعري استقر في المغرب قَبل الموحدين، حيث نجد أشعرية القاضي عياض واضحة جلية[3]، وقبله كان ابن الوحشي (ت:502هـ) الذي اختصر مشكل القرآن لابن فورك، وضمّن كتابه في شرح

(1) المراكشي، الذيل والتكملة: 22/5.

(2) القادري، نشر المثاني، المطبعة الحجرية بفاس. 1310هـ، 151/2.

(3) يُنظر في هذا الباب، مقال بعنوان القاضي عياض وآراؤه الأشعرية من خلال كتابه الشفا للدكتور عبد المجيد معلومي، مجلة المجلس، عدد 8-9. سنة 2010.

الشهاب مجموعة من الآراء العقدية على مذهب الأشعرية، اعتمد في مواضع منه على **مشكل الحديث وبيانه** لابن فورك[1].

لم يكتف علماء المغرب بتطريز كتبهم بآراء الأشاعرة منثرةً بين دفتي مصنفاتهم كما فعل القاضي عياض وابن الوحشي، بل أفردوها بالتأليف المستقل منذ العهد المرابطي، وقبل الترسيم السياسي للمذهب إبان العهد الموحدي، مثل صنيع أبي بكر المرادي الحضرمي (ت:489هـ)؛ القاضي ومستشار الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني؛ الذي ألّف عقيدة مستقلة[2]، وبعده تلميذه ووارث مقامه أبو الحجاج الضرير (ت:520هـ)، الذي كان يحرص على قراءة وإسماع ونشر عقيدة شيخه، وقد تلقاها عنه غير واحد، منهم القاضي عياض[3]، وكانت له أرجوزتان في الاعتقاد الأشعري، الأرجوزة الصغرى[4]، والأرجوزة الكبرى، المسماة التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد[5].

واستمر علماء المغرب على هذا النهج، فتنوعت كتاباتهم في العقيدة الأشعرية، شرحا لمتون المشارقة، ونظما لأصول المذهب ومسائله، وتحشية على بعض المصنفات، واختصارا وتلخيصا لأخرى تقريبا لها من القارئ، وغير ذلك من الجهود.

وإذا كان استقصاء جهود العلماء في هذا الباب مستحيلا، لكثرتها ووفرتها، فإننا نورد نماذج نستعين بها في بلورة صورة عامة عن جهود العلماء في ترسيخ عقيدة الاعتدال في عموم الديار المغربية:

- **القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت:543هـ):** أدخل عددا من مصنفات أعلام الأشاعرة إلى المغرب، مثل كتب الجويني والغزالي وغيرهما، وقد تأثر بشيخه أبي حامد الغزالي في رحلته المشرقية، وفي مصنفاته في التفسير وفقه الحديث إشارات أشعرية منثرة، وله مؤلفات عقدية أشعرية خالصة، لكنها لم تشتهر مثل شهرة مؤلفاته الأخرى.

(1) تراجَع الدراسة التي قدّم بها الدكتور يونس بوعلام لكتاب شرح الشهاب لابن الوحشي، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، 2018م، 68/1.

(2) نشرها الدكتور جمال علال البختي ضمن منشورات الرابطة المحمدية لعلماء المغرب.

(3) القاضي عياض، الغنية: 226.

(4) نشرها لأول مرة الدكتور أحمد الفراك والأستاذ محمد الفتات، دار لبنان، بيروت، 2020م.

(5) نشره جماعة من الباحثين، طبع وزارة الأوقاف بالمغرب، 2014م.

أبو عمرو عثمان السلالجي (ت:574هـ)، وصفه ابن الأحمر بجويني المغرب، وأنه منقِذ أهل فاس من التجسيم، وأنه منشئ علم أصول الدين في المغرب[1]، صنف عقيدة أشعرية خالصة، اشتهرت بالبرهانية أو السلالجية.

أبو الحسن علي بن خمير السبتي (ت:614هـ)، له كتاب «مقدمات المراشد، لقواعد العقائد»، كتبه بأسلوب سجالي جدلي[2].

وإذا تجاوزنا البرهانية للسلالجي، التي تضافرت جهود العلماء في شرحها ونظمها وتدريسها، فإن علماء المغرب سيعمدون لاحقا إلى ترسيخ العقيدة الأشعرية في كل ربوع المغرب من خلال متون رئيسة:

أولها: متون السنوسية الكبرى والوسطى والصغرى[3]، حيث تناولوها كعادتهم بالشرح والتحشية والاختصاروالنظم، مثل شروح الصغرى لكل من محمد بن المهدي الدرعي الجرار (ت:979هـ)، ومحمد بن أبي القاسم الفجيجي (كان حيا سنة 1048هـ)، وأبي الحسن علي اليوسي (ت:1102هـ) ...، كما اختصرها غيرواحد من المغاربة، منهم جدنا الشيخ الحسين بن عمران الجباري الحسني رحمه الله تعالى، المتوفى بمدينة القصر الكبير أوائل القرن 11هـ[4]، ونظم هذه العقيدة غيرواحد من المغاربة، منهم عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت:1096هـ).

ولم يقتصر اعتناء المغاربة بصغرى السنوسي فقط، بل كان اهتمامهم بنظائرها مثل اهتمامهم بالصغرى أويزيد، فشرَح كبرى السنوسي أحمد المنجور (ت:995هـ)، وعبد الواحد بن عاشر (ت:1040هـ)، والحسن اليوسي (ت:1102هـ)، إضافة إلى طلائع البشرى، فيما يتعلق بشرح العقيدة الكبرى، لعمر الفاسي (ت:1188هـ).

ثانيها: الجزء الخاص بالتوحيد من منظومة المرشد المعين للفقيه عبد الواحد بن عاشررحمه الله، شرحه عدد من أعيان علماء المغرب، منهم الشيخ محمد بن قاسم جسوس (ت1182هـ)، والعلامة المجتهد محمد الطيب بنكيران (ت:1227هـ)، وغيرهما.

(1) ابن الأحمر، بيوتات فاس: 45.

(2) احنانة، تطور المذهب الأشعري: 129.

(3) يراجع «تطور المذهب الأشعري» ص: 202 وما بعدها.

(4) يوجد هذا المختصرضمن مجموع في الخزانة العامة بتطوان، وقد أورده بتمامه ابن عمنا الأستاذ الخضر الجباري ضمن رسالته الموسومة بـ«الشيخ الحسين بن عمران الجباري الحسني، حياته وآثاره» ص:20، وأورده أيضا شقيقنا الأستاذ عبد الرزاق الجباري في كتابه «إتحاف الأماجد، بذكرنسب وأخبار آل الجباري والسيد الوالد».

ولم تكن هذه المتون العقدية وشروحها حبيسة رفوف المكتبات العامة والخاصة، بل نجح علماء المغرب في نشرها وتعميم النفع بها في جميع طبقات المجتمع، وفق الخطة الآتية:

- جعلها ضمن المقررات الدراسية في الجوامع والمعاهد[1]، فتلقاها الطلبة ونقلوها إلى مدنهم ومداشرهم وقراهم.

- تخصيص تلك المختصرات الموجزة والمنظومات القصيرة للنساء.

- تحفيظ هذه المتون للمحضرة في الكتاب.

وبهذا المنهج، نجحوا في تعميم أساسيات العقيدة الأشعرية على جميع طبقات المجتمع.

المطلب الثاني: محاربة الانحراف العقدي

أحدث بعض المغاربة جملة من الانحرافات العقدية، وانفتحوا على نحل أخرى، مما حدا بعلماء المغرب إلى تحمل مسؤولية الذب عن عقيدة الاعتدال التي ترسخت في المجتمع منذ أمد غيريسير، ويمكن رصد جهود علماء المغرب في هذا المجال من خلال:

أ - مواجهة الانحراف العقدي الداخلي:

طفَت بين الفينة والأخرى بعض الانحرافات العقدية في جهات من المغرب، إلا أن جهود العلماء كانت حائلا بينها وبين الانتشار في عموم المجتمع، إما بسبب محاربتها في مهدها، أو بسبب المناعة الذاتية التي يتميزبها المجتمع المغربي المرتبط بعلمائه، ومن جملة الانحرافات العقدية التي ظهرت في المجتمع، غلو بعض أهل سجلماسة، الذين كانوا يمتحنون الناس – بمن فيهم العوام – في بعض الصفات الإلهية، والمعاني العقدية الدقيقة، ويطلبون منهم الجواب، فمن قصرت عبارته عما في قلبه، أو تلعثم في الجواب لدهشة أو خجل، أو جهل شيئا ولو لم يكن قادحا، عمدوا إلى تكفيره، وشنعوا عليه بين العام والخاص، وأشاعوا بين الناس جملة مسلّمات، منها:

- من لم يشتغل بالتوحيد على نمطهم الذي يقررون فهو كافر.

- من لم يعرف معاني النفي والإثبات الواردين في كلمة الإخلاص فهو كافر.

(1) على سبيل المثال: كان العلامة عبد القادر الفاسي والعلامة عبد الملك العلوي الضريريدرس لطلبته السنوسية في فاس، وكان العلامة المحقق العباس بن أبي بكربناني يدرس شرح الشيخ الطيب بنكيران على توحيد ابن عاشر بجامع القرويين. اقتفاء الأثر: 198. التصور والتصديق: 27. سبيل التوفيق: 56.

وهكذا أحدث هؤلاء السجلماسيون فتنة كان المجتمع في غنى عنها، بل تغالوا في ذلك حتى قرروا للناس ما هو من سوء الأدب مع الله تعالى وتقدس، فكانوا يسألون العوام جملة أسئلة، مثل: أين بات الله؟ أين يصبح؟ أين يظل؟ أين هو؟ كيف هو؟ ...

ومن نتائج تكفيرهم لمخالفيهم، أنْ أشاعوا أنّ عوام المسلمين لا تؤكل ذبائحهم، ولا يناكحون، مخافة أن يكونوا ممن لا يعرف التوحيد[1].

لم يقف علماء المغرب موقف المتفرج من هذه الانحرافات العقدية، بل شمروا عن ساعد الجد، وتحملوا مسؤوليتهم للذب عن جوهر العقيدة ولبّها، وذلك بالقضاء على أسباب هذا الانحراف والغلو، ومحاولة إرجاع الناس إلى عقيدة الاعتدال، فألف العلامة أبو سالم العياشي كتابه الباذخ: الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف، فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف[2]. وألف العلامة أبو علي اليوسي كتابه الماتع: مشرب العام والخاص، من كلمة الإخلاص، ولم يكتف بالتأليف فحسب، بل انتقل إلى سجلماسة مهد هذا الانحراف وموطنه[3]، وعمل على إعادة نشر عقيدة الاعتدال، بالابتعاد عن دقائق الكلام وخوافيه، مراعاة لطبيعة المخاطَبين الذين كانوا من العوام، فبيّن لهم أن معنى كلمة الإخلاص المطلوب من المسلم اعتقاده هو الإيمان بوجود الله تعالى، وأنه واحد في ملكه لا شريك له، ولا إله معه، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه ليس المطلوب منهم فهم ألفاظ الكلمة المشرفة، وإدراك حدودها ورسومها، لأن الإحاطة بذلك من شأن العلماء لا العوام، ففرحوا بجوابه، واغتبطوا بتقريراته، ثم حاور بعد ذلك زعيم هذه الفتنة وناظره.

ب - مواجهة الانحراف العقدي الخارجي:

بعد فتنة سجلماسة بعقود، ظهرت دعوة محمد بن عبد الوهاب في الديار النجدية، ووصل صداها إلى الديار المغربية، فاطلع عليها سلطان الوقت وعلماؤه، فوجدوا فيها جنوحا عن الاعتدال، وميلا إلى الغلو في الاعتقاد، ومبالغة في التبديع بل والتكفير، فبادر علماء المغرب المعاصرون لدعوته إلى الرد عليه، وإرجاع الأمر إلى نصابه، فألف العلامة الشيخ الطيب بن عبد المجيد بنكيران رسالتين (كبرى ومختصرة) ردّ فيهما على الفكر الوهابي، وناقش مبادئه[4].

(1) اليوسي، المحاضرات: 226/1.

(2) اعتنى به الدكتور عبد العظيم صغيري دراسة وتحقيقا، وذلك لنيل شهادة الدكتوراه من دار الحديث الحسنية.

(3) اليوسي، المحاضرات: 227/1.

(4) نشرت الكبرى مع كتاب إظهار العقوق، ممن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق.

ولما رحل عبد الله بن إدريس السنوسي (ت:1350هـ) إلى المشرق، تأثر بالفكر الوهابي، وبعد عودته إلى المغرب، حمل لواء نشره بين مدنه وقراه، ومن غلوه أن حكم بالشرك على زوار القبور، وعلى من يسوِّد ولّيا أو عالما، وحكم بالضلال على الأشاعرة، وغير ذلك مما أُثر عنه[1]. فرد عليه ثلة من علماء المغرب، أبرزهم تلميذُ الشيخ الطيب بنكيران شيخُ الجماعة أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني (ت:1323هـ)، الذي ألّف في الرد عليه كتابا سماه الفجر الصادق المشرق المفلق، في إبطال ترهات الثرثار المتشدق المتفيهق، وقبل الرد على عبد الله السنوسي، تطرق إلى السياق العام لدعوته، وأرجعها إلى أصولها وجذورها، وهي الحركة الوهابية النجدية، فقال: «ومسلك الجماعة التي ظهرت قِبَل المشرق، وفاهت بكلام مبطل غير مُحق، وشوشوا على العامة عقائدهم، وكفروا من هذه الأمة من خالفهم»[2].

وبعد مدة من الزمن، تأثر كثير من المغاربة بالدعوة النجدية، وانتظموا في جمعيات وهيآت، فتولى الرد عليهم نخبة من أعيان علماء المغرب، من أبرزهم، العلامة المجتهد المحقق عبد الله بن الصديق الغماري (ت:1413هـ)، فكان شجى في حلوقهم، وعقبة كأداء أمام دعوتهم، وذلك لعدة اعتبارات، أهمها:

أولا: لم يعبأ أتباع المدرسة النجدية في المغرب بعلمائه، لأنهم في نظرهم مجرد مقلدة، أما الشيخ عبد الله بن الصديق، فكان مجتهدا غير مقلد، لذلك كانت ردوده ذات وقع عليهم وعلى أتباعهم، في المغرب والمشرق على السواء.

ثانيا: كان علماء المغرب؛ في الغالب الأعم؛ فقهاء مالكية، مثل الوزاني والرهوني والمرير والفرطاخ وسكيرج وجعفر الكتاني وغيرهم، ولم يكن لهم إلمام بالحديث وفنونه، ولم يكن لهم إدراك لخوافيه ودقائقه. والوهابية رفعوا شعار العمل بالحديث، وأنهم مجددو مدرسة «أهل الحديث»، أما الشيخ عبد الله بن الصديق، فكان محدثا حافظا ناقدا، بل بيّن ضعفهم في هذا العلم الشريف، ورغم مخالفتهم المذهبية معه، فإنهم تتلمذوا له، واستجازوه.

ثالثا: أغلب الوهابية –من جيل المؤسسين إلى الآن– بضاعتهم في علمي الكلام وأصول الفقه مزجاة، أما الشيخ عبد الله بن الصديق، فكان متفوقا فيهما، عالما بخوافيهما.

لهذه الأسباب، كانت لردود العلامة عبد الله بن الصديق أهمية بالغة في رد الحق إلى نصابه، فتناول أهم مرتكزات الوهابية ومقومات نحلتهم بالدحض والتفنيد، والنسف والإبطال، ويمكن إجمال ردوده عليهم في:

(1) العمراني بدر، الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي: 165. مقدمة عدنان زهار لكتاب الفجر الصادق: 43.
(2) الكتاني جعفر، الفجر الصادق: 75.

- الرد على عقيدة التشبيه التي تعتبر أساس النحلة الوهابية، وذلك من خلال عدة مؤلفات، أهمها فتح المعين، بنقد كتاب الأربعين، وهو نقد علمي رصين لكتاب الأربعين في دلائل التوحيد لأبي إسماعيل الهروي الحنبلي، وهو من غلاة المشبهة والمجسمة، أثبت في كتابه أن الله شيء، وأن له حدا وعينين ويدين ...[1]، فانتصر الشيخ ابن الصديق في رده لعقيدة الاعتدال، ونبذ الغلو في الإثبات الذي أوقع أصحابه في التشبيه.

- الرد على جملة من الآراء العقدية لابن تيمية، خصوصا القول بقدم العالم[2].

- إباحة التوسل والرد على التكفيريين الذي يرمون المتوسلين بالشرك والضلال، وذلك في عدة مؤلفات، منها إتحاف الأذكياء، بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء.

- الرد على الوهابية في عدة قضايا، كالتوسل، واتخاذ المساجد على القبور، وقراءة القرآن للموتى وغيرها في كتابه الرد المحكم المتين، على كتاب القول المبين، وهو مؤلف سجالي حواري.

المبحث الثاني: ترسيخ الاعتدال الفقهي من خلال المذهب المالكي

تلقى المغاربة المذهب المالكي بالقبول منذ أمد غير يسير، التزموا أصوله وقواعده، وطبقوا فروعه وأحكامه، وقدّروا علماءه وأعلامه، فصار يجري منهم مجرى الدم، فلا تكاد تجد مغربيا إلا كان مالكيا، في صلاته وصيامه، في بيوعه ونكاحه، وحتى في الفترة الموحدية، حيث فقَد المذهب الاحتضانَ الرسمي، فإنه لم يفقد الاحتضان الشعبي المجتمعي.

وكان تمسك المغاربة بالمذهب المالكي مبنيا على خصوصياته العديدة، أهمها أنه يمثل مدرسة الاعتدال الفقهي، حيث تشكل من ثلاثية النص والرأي والواقع:

- **النص:** القرآن والسنة والإجماع، وهو ما لا يوجد عند الشيعة. (لأن الإجماع ليس حجة عندهم).

- **الرأي:** القياس والاستحسان. وهو ما لا يوجد عند الظاهرية.

- **الواقع:** عمل أهل المدينة (التفاعل مع الواقع في عهد الإمام)، أو العرف والعمل (التفاعل مع واقع فقهاء المذهب)، والاستصلاح (استحضارا من الفقهاء لقاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد أثناء الاجتهاد).

(1) نشرنا دراسة بعنوان الانتصار للتنزيه، ونقض شبه التشبيه، عند الحافظ عبد الله بن الصديق، في مجلة الإبانة، عدد 1.

(2) بن الصديق عبد الله، إرغام المبتدع الغبي: 13.

هذه القدرة في الجمع بين النص والواقع والرأي جعلت علماء المغرب يتمسكون بالمذهب المالكي ويجتهدون داخل منظومته الأصولية، بل يرفضون رفضا مطلقا أي مذهب لا يراعي هذه الخصوصية (= الجمع بين المكونات الثلاثة)، لذا لم يقبلوا بالمذهب الظاهري رغم قوة منظريه وأعلامه في الديار المغربية نفسها (مثل ابن حزم)، بل جعلوا مجرد الانتساب إلى المذهب جرحا، وقد أفتى ابن رشد الجد أن «إبطال القياس في أحكام شرائع الدين جملةً عند جميع العلماء بدعة، فمن اعتقده ودان به جرح، لأن ذلك خلاف ما دل عليه القرآن، وتظاهرت به الأدلة»[1].

ولم يقتصر نبذ المذهب الظاهري على متقدمي المذهب فحسب، بل استمر المغاربة على هذا النهج، ففي القرن العاشر، كان الشيخ محمد الأندلسي بمراكش يُظهر التمسك بالسنة، ويضرب عن القول بالرأي والقياس، ويعيب طريقة الفقهاء المغاربة، فما كان من فقهاء مراكش إلا أن أفتوا بتضليله، ووقعت له محن كثيرة، إلى أن ثار عليه العامة[2].

وبعد ذلك، تبنى عبد الله بن إدريس السنوسي مذهب أهل الظاهر[3]، لكنه لم يُلتَفَت إليه، ولم يكن له أنصار وأتباع.

لعل أهم ميسم يتميز به المذهب الظاهري، هو الغلو في التشبث بظواهر النصوص والجمود عليها، وهو ما جعله على طرفي نقيض مع المذهب المالكي، على اعتبار أنه مذهب مقاصدي بامتياز، لأن انبناءه على الاستصلاح وسد الذرائع ومراعاة مقاصد المكلفين «جعلته أكثر المذاهب عناية بمقاصد الشريعة ورعاية لها»[4]، وهذا الاختلاف البالغ حد التناقض، هو الذي جعل علماء المغرب لا يقبلون المنتسبين إلى المذهب الظاهري، ويرفضون نشر آرائهم، لما يستبطن ذلك من تهديد لهوية الاعتدال الفقهي التي يتصف بها المجتمع المغربي.

المبحث الثالث: نشر الاعتدال الروحي من خلال التصوف السني

اشتهر علماء المغرب عبر العصور بتمسكهم بالتصوف السني، وانخراطهم في مشروعه التربوي، على اعتبار أنه مشروع لتزكية النفس وتطهيرها والرقي بها في معارج الكمال الروحي،

(1) ابن رشد، الفتاوى: 1436/3. والفتوى نفسها موجودة في المعيار للونشريسي تحت ترجمة: «اعتقاد الظاهرية وإنكار القياس جرحة» المعيار: 341/2.

(2) ابن عسكر، دوحة الناشر: 99.

(3) العمراني بدر، الشيخ عبد الله السنوسي:155.

(4) الريسوني أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: 57.

وهو ما يترتب عنه عدد لا يعد ولا يحصى من الفوائد والآثار، منها؛ بل أهمها؛ تهذيب النفس وتحصين الإنسان من التعصب والتطرف والغلو، لذلك اهتم به علماء المغرب وانتسبوا إليه، ودافعوا عنه، وذبوا عن حياضه، وتتجلى علاقة علماء المغرب بالتصوف في:

المطلب الأول: ارتباط العلماء بشيوخ التربية

نبغ بعض علماء المسلمين في التفسير والفقه والأصول وغيرها من العلوم، ووصلوا في بعضها مبلغ الاجتهاد والتحقيق، ومع ذلك، تراهم ييممون وجوههم نحو التصوف للتتلمذ لشيوخه، والتربية على يد أربابه، مثل ما وقع لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطي رحمهما الله، ولم يشذ المغاربة عن هذا السَّنن، فاتخذ جملة من علمائه شيوخا للتربية، نذكر منهم نموذجين اثنين في هذا المقام:

النموذج الأول: أبو المحاسن يوسف الفاسي وسيدي عبد الرحمن المجذوب

كان أبو المحاسن يوسف الفاسي القصري عالما موسوعيا، مشاركا في جل الفنون على سبيل التمكن والتحقيق، قال عنه العلامة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني: «حصل من العلوم ما طبق الآفاق، واشتهر علمه في المشرق أكثر من المغرب، وشهد له علماء عصره بالبراعة في العلوم كلها»[1]، ورغم احتلاله لهذه المكانة العلمية السامقة، فإنه لم يفارق شيخه في طريق التصوف أبا زيد عبد الرحمن المجذوب الذي سلك طريق القوم على يديه إلى أن مات، ولم يفتر عما كان فيه من الاستغراق إلا مدة قليلة، حيث كان متفرغا لطلب العلوم الشرعية[2]، ورغم كثرة شيوخه، فإنه لم يكن ينتسب إلا إليه[3].

النموذج الثاني: أحمد بن المبارك السجلماسي وسيدي عبد العزيز الدباغ

احتل العلامة أحمد بن مبارك السجلماسي مكانة علمية سامية بين علماء المغرب، حتى قيل فيه وفي بلديه أحمد بن عبد العزيز الهلالي: «لولا الأحمدان لذهب المعقول من المغرب»، وكان يخوض في المسائل العلمية من باب الاجتهاد، ويذم التقليد وينفر منه، ومن تآليفه البديعة، إنارة الأفهام، فيما قيل في دلالة العام، انتقد الإمام القرافي في ثلاثة مباحث: تعريف العموم، ودلالته، وهل العموم من قبيل الكلي أو الكلية؟ إضافة إلى مباحث لم تطرق قبله[4].

(1) نقلا عن مقدمة محقق مرآة المحاسن: 42.

(2) الفاسي، مرآة المحاسن: 74.

(3) الفاسي، مرآة المحاسن: 79.

(4) العقد المنظوم، في الخصوص والعموم: 195.

وله كتاب بديع أسماه تحرير مسألة القبول، على ما تقتضيه قواعد الأصول والمعقول، وهو كتاب غني بالمباحث الكلامية والأصولية، وخالف الأشاعرة في قضايا كلامية ضمن كتابه رد التشديد، في مسألة التقليد، إضافة إلى مؤلفات أخرى، كلها تدل على علو كعبه، ورسوخ قدمه في العلوم الشرعية بشتى فنونها، ورغم ذلك، ذهب إلى الشيخ سيدي عبد العزيز الدباغ، وتتلمذ له، ونهل من معينه، ولِيم على ذلك من قِبل بعض علماء الظاهر، لكنه لم يأبه بهم، ونشر كثيرا من أقوال شيخه في مجلد خاص أسماه الإبريز، من كلام القطب سيدي عبد العزيز.

هذان نموذجان من علماء المغرب، لم يكن علمهم ووجاهتهم ليحولا بينهم وبين شيوخ التربية، فرضعوا لبان الثديين، وجمعوا بين العلم الوهبي والعلم الكسبي، وغيرهما كثير عبر العصور.

المطلب الثاني: تأطير الصوفية للعامة من خلال فن الرسائل

بيّنا أن العلماء كانوا مجِدّين في تأطير المجتمع من الناحيتين العقدية والفقهية، وكذلك كان أهل التصوف وشيوخه، حيث لم يتركوا مريديهم –خصوصا البعيدين عنهم– هملا دون رعاية أو تربية، بل كانوا دائمي الاتصال بهم، إما عبر الزيارات المتبادلة، أو عبر الرسائل التي تحمل توجيهات تربوية غالية، يتوخى من خلالها الشيخ تسديد عمل المريدين، ومن أهم هذه الرسائل وأشهرها، رسائل مولاي العربي الدرقاوي[1] رضي الله عنه، الذي عمل من خلالها على تحصين أتباعه من الغلو والتطرف الذي وقع فيه بعض أدعياء التصوف، الذين تحللوا من أحكام الشريعة تحت دعاوى ومسوغات عديدة، فخاطبهم قائلا: «إني أحب من يتعلق بي، أن يقوم بالمفروض، وبما تأكد من المسنون، وأن يكون دائما على نظافة بدنه من وسخه، فأحرى نجسه ...»[2]، وقال في رسالة أخرى: «فالإكسير الحقيقي أيها الفقير، الذي يقلب الأعيان حقيقة لا محالة، ويملك به الإنسان نفسه والإنس والجان وما لا يتصور في عقله، ويفوز بخير الدنيا وبخير الآخرة، هو ما أتانا به رسول الله ﷺ، «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» ... أو نقول: متابعة رسول الله ﷺ، ومتابعة أصحابه الكرام رضي الله عنهم، ومتابعة الثقات الكبار من الأمة المحمدية»[3].

(1) منشورة بعنوان بشور الهدية في مذهب الصوفية.

(2) الدرقاوي، بشور الهدية: 24.

(3) الدرقاوي، بشور الهدية: 154.

وبعد الحض على اتباع أحكام الشريعة، والائتساء بالنبي ﷺ وبصحابته الكرام، دعا مولاي العربي الدرقاوي إلى محاربة هوى النفس وعدم اتباع شهواتها، وهذا جوهر التربية عند الصوفية، فيقول رضي الله عنه في إحدى رسائله: «فكونوا رحمكم الله على ما يميت نفوسكم، ويحيي قلوبكم، وأصل المحاسن من حيث هي، هي فراغ القلب من حب الدنيا، كما أن أصل القبائح من حيث هي، هي عمارته بحبها»[1].

ولما أقدم شخص من العوام على ضرب أحد اليهود ظلما وجورا، أخبر الشيخَ مولاي العربي الدرقاوي بصنيعه، وكأنه قام بعمل يتقرب به إلى ربه، فأجابه الشيخ بقوله: «لا تضرب يهوديا ولا نصرانيا ولا غيرهما، إن كان ولا بدّ لك من الضرب، فاضرب نفسك وداوِم على ضربها حتى تقتلها ولا تتركها حية»[2]، وفي هذه النصيحة دعوة إلى التعايش مع الآخر غير المسلم، وعدم الاعتداء عليه بناء على المغايرة في الاعتقاد، وفي المقابل، يبين الشيخ المربي لأتباعه أن العدو الأكبر للإنسان هو نفسه وشهواتها.

لم يكن الشيخ مولاي العربي الدرقاوي منفردا بتقنية الرسائل لتحقيق التواصل مع أتباعه ومريديه، بل نجد شيوخا آخرين يعتمدون نفس الآلية، مثل رسائل سيدي أحمد بن عبد المومن الغماري، ورسائل سيدي أحمد الحراق[3]، ورسائل المدغري، نسبة إلى سيدي محمد العربي بن محمد الهاشمي العلوي الجاوزي (ت:1309هـ) الذي نشر الطريقة الدرقاوية في الجنوب الشرقي للمغرب[4]، كما كانت للشيخ سيدي محمد بن الصديق الغماري الدرقاوي رسائل موجهة إلى محبيه وأتباع طريقته في العرائش وفاس وغيرهما[5].

المطلب الثالث: مركزية التصوف في ثقافة العالِم المغربي

اهتم علماء المغرب بالفهارس والأثبات، حيث يذكرون شيوخهم الذين تلقوا عنهم العلم، وما سمعوه منهم من العلوم والمعارف، والإجازات التي حصلوها في مسيرتهم العلمية، وبنظرة عجلى حول هذه الفهارس، نخلص إلى أنها تعكس بجلاء مكونات الثقافة المغربية، ومنها

(1) الدرقاوي، بشور الهدية: 28.

(2) الدرقاوي، بشور الهدية: 29.

(3) رسائل الشيخ سيدي أحمد الحراق غير منشورة، إلا أنها حظيت بدراسة من قبل الباحثة نعيمة بويغرمني ضمن أطروحتها المرقونة بكلية الآداب بالرباط بعنوان: شعر محمد الحراق الصوفي، تحقيق ودراسة تحليلية وصفية.

(4) المنوني، المصادر العربية: 134/2.

(5) نشر بعضها نجله أبو الفيض أحمد بن الصديق ضمن كتاب التصور والتصديق، بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق.

التصوف المغربي، حيث لا تكاد تجد فهرسة من فهارس كبار العلماء إلا وتجد فيها أسانيدهم إلى علماء التصوف ومصنفاتهم، مثل أسانيد أبي سالم العياشي إلى مصنفات محيي الدين ابن العربي الحاتمي وأبي حامد الغزالي، والحكم العطائية لابن عطاء الله، وديوان ابن الفارض، والبردة للإمام البوصيري، وعوارف المعارف للسهروردي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والرسالة لأبي القاسم القشيري وغيرها من المصنفات والمتون الصوفية[1]. وكذلك خصص العلامة أبو المواهب جعفر الكتاني جزءا من فهرسته للمصنفات الصوفية التي يرويها بالسند المتصل إلى مؤلفيها، مثل إحياء علوم الدين للغزالي، ومؤلفات ابن عطاء الله ومحيي الدين ابن العربي الحاتمي والإمام الشعراني[2].

ومن علماء المغرب من يفصل بين الفهارس العامة، والفهارس ذات النزعة الصوفية، مثل العلامة أبي عبد الله محمد التاودي بن سودة (ت:1209هـ)، الذي خصص فهرسته للتعريف بشيوخه من المغرب والمشرق، وما تلقاه عنهم من العلوم والمعارف، وما حصل عنهم من الإجازات، وسماها الفهرسة الصغرى، تمييزا لها عن الفهرسة الكبرى، التي خصصها لمن لقيه من الفضلاء والصالحين، ممن حصل له منه شيء، أو كاشفه بأمر من الأمور.

من خلال هذه النماذج؛ وغيرها كثير؛ نلمس مركزية التصوف في الثقافة العامة عند علماء المغرب، بحيث لم يقِلَّ اهتمامهم بالسند الصوفي التربوي عن اهتمامهم بالسند العقدي أو الفقهي أو الحديثي.

المطلب الرابع: التأصيل العلمي للتصوف

لم يبق التصوف المغربي منحصرا في الممارسة العملية، والانتساب الطرقي فحسب، بل امتد إلى الجانب العلمي، حيث نجد المكتبة الصوفية المغربية ثرة غنية، ذات مادة غميسة، قمينة بالبحث والاكتشاف، وقد تنوعت الكتابة الصوفية لعلماء المغرب، حيث كان فيهم المؤلف والشارح والمختصِر والناظم، ويكفي أن نورد جزءا من جهود العلامة سيدي أحمد بن عجيبة الحسني في هذا المجال على سبيل المثال:

- البحر المديد. وهو تفسير إشاري للقرآن، على طريق أهل التصوف.
- اللوائح القدوسية، شرح الوظيفة الزروقية.
- شرح الصلاة المشيشية.

(1) العياشي، اقتفاء الأثر: 190 وما بعدها.

(2) الكتاني جعفر، الفهرسة: 227 وما بعدها.

- إيقاظ الهمم، في شرح الحكم، لابن عطاء الله السكندري.

- الفتوحات الإلهية، في شرح المباحث الأصلية، لابن البنا السرقسطي.

ولعل من الكتابات المغربية الرائدة في الدراسات الصوفية، كتاب الإعلام، بأن التصوف من شريعة الإسلام، للعلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري، حيث اجتهد من خلاله في تأصيل التصوف واصطلاحاته ومقاماته، ردا على من ادعى أن التصوف بعيد عن الثقافة الإسلامية، وأنه مستورد من الحضارات المسيحية والغنوصية وغيرهما، فقال في مقدمته: «كثر في هذا الزمان الذي طغى شره على خيره، من ينكر التصوف ويزعم أنه دخيل على الإسلام، جاء به مَسلَمة الكتابيين والبوذيين ومن على شاكلتهم، وأن الصوفية أصحاب بدع وخرافات، إلى غير ذلك من الدعاوي التي يأباها العقل، ويكذبها النقل، فانتُدِبنا لإبطالها بهذا الكتاب الذي نرجو الثواب عليه من الله تعالى، والتزمنا فيه إيراد الأدلة من الكتاب والسنة»[1]، فاستدل بنصوص من السنة النبوية لما يُتداول عند الصوفية من قبيل المجاهدة والفناء، وعلم الظاهر والباطن، والإلهام والمكاشفة والخلوة والفتوة، والأبدال والنجباء والأوتاد، وكرامات الأولياء، وحلق الذكر، والذكر بالاسم المفرد، وختمه بذكر مواقف العلماء من الصوفية، ليخلص إلى أن «الأدلة كثيرة جدا على أن العلماء كانوا يعتبرون التصوف من الدين، ويعدون الصوفية من الصَّفوة المختارين»[2].

ولم يدَع علماء المغرب الثقافة الصوفية في الطروس والرفوف، بل أخرجوها إلى كراسي الدروس العلمية، تأطيرا منهم لأفراد المجتمع، فكانت حلقات خاصة لتدريس المصنفات الصوفية، مثل تدريس الشيخ الطيب بنكيران وأبي عبد الله بن قاسم جسوس وأبي عبد الله محمد بن أحمد التماق للحكم العطائية[3].

المبحث الرابع: ربط المجتمع بالقدوة/النموذج

لا يمكن للتربية النظرية أن تؤتي النتائج المتوخاة إلا إذا ربطها المربي بنماذج واقعية، وهو الأمر الذي تفطن له علماء المغرب، حيث ربطوا أفراد المجتمع بنموذجين من القدوة، أولهما: سيدنا محمد ﷺ، وثانيهما: عامة الأولياء والصالحين.

(1) ابن الصديق عبد الله، الإعلام: 34.

(2) ابن الصديق عبد الله، الإعلام: 138.

(3) الفهرسة الصغرى لابن سودة: 73-76. الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله: 247/2.

- **النموذج الأول:** انتبه علماء المغرب إلى أهمية ربط المجتمع بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، على اعتبار أنه الإنسان الكامل، والنموذج المثال، وأن التأسي به يسهم في صناعة الإنسان السوي، البعيد عن الغلو والتعصب والتطرف، لهذا كان لعلماء المغرب اليد الطولى في التأليف في السيرة النبوية، ويكفي أن نذكر منهم القاضي عياض في الشفا، والإمام السهيلي في الروض الأنف، والشيخ الطيب بنكيران في شرحه لـألفية السيرة للحافظ العراقي ...

كما تفطن علماء المغرب إلى أهمية التأدب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبهوا إلى خطورة الغلظة والجفاء مع الحضرة النبوية، لأنه قد يكون الأصل الأصيل لثقافة الغلو والتطرف السائدة في صفوف الخوارج، كما وقع لذي الخويصرة الذي قال لرسول الله ﷺ حين كان يقسم قسما: اعدل، فأجابه النبي ﷺ بقوله: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم نبه النبي ﷺ أن هذا الجفاء لن يكون الأخير في الأمة، بل سيكون له امتداد على مر التاريخ، فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ...، ويخرجون على حين فرقة من الناس»[1].

ومن الجفاء الذي ألفيناه عبر التاريخ، المناداة على النبي وذكر اسمه الشريف مجردا عن السيادة أو أي عبارة تدل على التشريف والتوقير، بل من «العلماء» من حارب تسويد النبي ﷺ.

أما علماء المغرب فقد اجتهدوا في تربية المغاربة على تعظيم النبي وتوقيره، من ذلك وصية الشيخ مولاي عبد الله الشريف الوزاني لأصحابه أن لا يذكروا اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا بعد ذكر سيادته إلا في الأذان والإقامة[2]، وهو ما رجحه العلامة المالكي إبراهيم بن هلال السجلماسي في أول نوازله[3]، أما المحدث المجتهد السيد أحمد بن الصديق الغماري، فرجح استحباب السيادة حتى في الأذان والإقامة والتشهد، وألّف في ذلك مجلدا ضخما أسماه تشنيف الأذان، بأدلة استحباب السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام في الصلاة والإقامة والأذان. وهو كتاب ممتع مفيد، استدل لرأيه بأدلة من المنقول والمعقول، وبقواعد الأصول.

وقد تنبه القاضي عياض رحمه الله تعالى إلى الأدب اللازم عند ذكر النبي ﷺ، فأرشد إلى ضرورة أن يراقب المتكلم حَالَ لسانه، ولا يهمله، فيهجر «من العبارة ما يقبح، كلفظة الجهل والكذب والمعصية، فإذا تكلم في الأقوال قال: هل يجوز عليه الخلف في القول، والإخبار

(1) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه.

(2) ابن الصديق أحمد، تشنيف الأذان: 82.

(3) ابن الصديق أحمد، تشنيف الأذان: 80.

بخلاف ما وقع سهوا أوغلطا؟ ونحوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة، وإذا تكلم على العلم قال: هل يجوز ألا يعلم إلا ما علم؟ وهل يمكن ألا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه؟ ولا يقول: بجهل، لقبح اللفظ وبشاعته، وإذا تكلم في الأفعال قال: هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامروالنواهي ومواقعة الصغائر؟ فهو أولى وآدَب من قوله: هل يجوز أن يعصي، أويذنب، أويفعل كذا وكذا من أنواع المعاصي. فهذا من حق توقيره ﷺ ومايجب له من تعزيز وإعظام»[1]، ولم يصدر هذا التنبيه النفيس من القاضي عياض رحمه الله تعالى إلا لما تقرر عنده واعتقده يقينا أن «جودة العبارة تُقَبِّحُ الشيء أو تحسّنه، وتحريرها وتهذيبها يعظّم الأمر أو يهوّنه»[2]، لذا كان استعمال هذه القاعدة مع الجناب النبوي أولى وآكد.

وغني عن البيان، أن تربية أفراد المجتمع على التأدب مع النبي ﷺ، وتنبيههم إلى ضرورة استعمال ألفاظ الكمال والجلال في حق جنابه المنيف، تنعكس على نفوسهم تأديبا وتهذيبا، وتنأى بهم عن مذهب الخوارج الغلاة الجفاة نأيا.

- **النموذج الثاني:** عمل علماء المغرب على ربط المجتمع بنماذج السمو الإنساني، والصلاح البشري، وهم أولياء الله وخاصته، الأحياء منهم والأموات، وذلك من خلال الاعتناء بهم، وتتجلى هذه العناية وهذا الاهتمام بالاحتفاء بهم، وإحياء ذكراهم، مثل إحياء ذكرى القطب مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه في جبل العلم، وإحياء ذكرى الشيخ سيدي أحمد بن عجيبة في منطقة الزميج قرب طنجة يوم 13 غشت من كل سنة[3]، وبعض هذه المناسبات تحولت في الثقافة المغربية إلى مواسم عامة، يحضرها الناس من مناطق نائية، مثل موسم الولي الصالح مولاي عبد الله بن علي بن الطاهر بمدغرة في إقليم الرشيدية، وغيره من المواسم العامة.

ومن عناية علماء المغرب بأولياء الله رضي الله عنهم، تأليفهم في مناقبهم، وذلك لتخليد مآثرهم، وتعرف الخلَف على مناقبهم وجميل خصالهم، ومن التآليف الجماعية للصلحاء، ما أتحفنا به العلامة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس[4]. وكذا جهود القاضي العباس بن إبراهيم

(1) عياض، الشفا: 252/2.

(2) عياض، الشفا: 253/2.

(3) عزوزي، الشيخ أحمد بن عجيبة: 135/1.

(4) تتبع الشيخ عبد الحي الكتاني كتابَ سلوة الأنفاس بالنقد، لكنه تعسف في ذلك، واتهمه ببعض الاتهامات غير اللائقة، ومع ذلك، فإن كتاب السلوة من أهم ما ألف في تراجم المغاربة، جمع فيه صاحبه ما تفرق في غيره، رحمه الله وأثابه رضاه.

المراكشي فيإظهار الكمال، في تتميم مناقب سبعة رجال[1]، إضافة إلى المطرب، في مشاهير أولياء المغرب، وهو سِفر ممتع، صنفه المحدث سيدي عبد الله التليدي الطنجي رحمه الله تعالى، ومن التآليف المخصصة للولي الواحد المفرد، المعزى، في مناقب الشيخ أبي يعزى[2]، لأحمد التادلي الصومعي (ت:1013هـ)، أو مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسن للشيخ محمد العربي الفاسي (ت:1053هـ)، أو المرقي، في مناقب القطب سيدي محمد الشرقي[3]، للشيخ عبد الخالق بن محمد العروسي (كان حيا سنة 1139هـ)، أو المؤذن، بأخبار سيدي أحمد بن عبد المومن، لحفيده العلامة المحدث السيد أحمد بن الصديق الغماري.

وتجلت عناية علماء المغرب بالأولياء والصلحاء بشد الرحال إلى أضرحتهم، والإكثار من زيارتهم، ومرافقة أصحابهم وتلاميذهم، مثل العلامة المعقولي أحمد بن عبد العزيز الهلالي الذي كان يشد الرحال من سجلماسة إلى فاس، بقصد زيارة صلحائها أحياء وأمواتا، واشتهر بذلك حتى قال عنه تلميذه محمد بن صالح القاضي: «كان زوارا للصالحين، يرى زيارتهم صوابا، وغنما يكون به الدعاء مجابا»[4]، وتوجه إلى أقصى شمال المغرب لزيارة ضريح القطب مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ونظم في هذه الزيارة المباركة:

زائرَ القطب اهد أزكى السلام ... لإمام الكمال عبد السلام.
من عبيد يرجو بخالص ودّ ... لعُاهُ فوزا، بدار السلام.
وأماناً من كل هولٍ وضُرٍّ ... يا سلام، يا حبَّ قرب السلام[5].

كما قام برحلة إلى فاس ومكناس ختمها بزيارة أضرحة أبي يعزى يلنور بالقرب من مدينة خنيفرة، ومحمد بن مبارك بتاساوت، ومحمد الشرقي بتادلة، ثم رجع إلى بلده، وقد صحبه في هذه الرحلة بعض تلاميذه[6].

كما كان لقاضي سجلماسة العلامة المحدث عبد الملك التجموعتي (ت:1118هـ) اعتقاد في الأولياء والصالحين، من ذلك قوله في الولي الصالح أبي يعزى يلنور:

عباد الله في الدنيا اللآلي ... أبو الأنوار لؤلؤُها الثمين

(1) من منشورات وزارة الأوقاف المغربية، بتحقيق زميلنا الدكتور إدريس الشراوطي.

(2) من منشورات كلية الآداب بأكادير، بتحقيق الباحث علي الجاوي.

(3) اعتنى به دراسة وتحقيقا الباحث محمد البقالي، وهو مرقون بكلية الآداب بتطوان.

(4) السوسي، المعسول: 37/6.

(5) نشر المثاني: 274/2. وحَبّ: اختصار حبذا.

(6) السوسي، المعسول: 34/6.

أنِخ بجنابه واحكم عليه بما أمّلته، وأنا الضمين[1].

واشتهر الفقيه أبو عبد الله محمد التاودي بكثرة التردد على ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش بقصد الزيارة والتبرك[2].

ولم تكن عناية علماء المغرب بالأولياء والصالحين إلا لسببين اثنين:

أولهما: التبرك بهم، والتوسل إلى الله بجاههم العظيم، وبمكانهم السني، وقدرهم العلي، وللعلامة المعقولي المجدد أبي علي اليوسي قصيدة طويلة في التوسل بالأولياء والصالحين، منها:

ورجالِ الجبال والغرب طرا وخصوصا من فيه من أوتاد.

مثل إدريس وابنه وأبي يَعْـ ـزى، وعبد السلام في الزهاد[3].

ثانيهما: التأسي والاقتداء بهم، والتخلق بأخلاقهم، واستلهام أحوالهم، والتأثر بمبادئهم وقيمهم، وترسيخها في الثقافة الشعبية، مثل التخلق بالجود والكرم والبذل، تأسيا بمبادئ وأخلاق أبي العباس السبتي دفين مراكش، حتى أصبح هذا الخلق منسوبا إلى اسمه، وهو ما يصطلح عليه في الثقافة المغربية بـ«العباسية».

وهذا التأسي والتخلق هو المقصود من قول القائل:

وصَفْنا طريق الصالحين وفعلَهم وما خصَّنا إلا التَّزَيُّن بالوصف.

وقول الآخر:

فافعل كفعلهم، وتقرب كقربهم فالفضل عُمِّم في القاصي والداني

ويستبعد جدا من المتأسي بالأولياء والمطلع على سيرهم وأخبارهم أن يبتعد عن منهجهم، وأن يرتمي في براثن التعصب والغلو والتطرف، لذا كان الارتباط بهم حصنا للمجتمع من الوقوع في مثل هذه الانحرافات، وكان التأسي بهم استلهاما لمنهج الاعتدال الذي وسموا به، رضي الله عنهم وأرضاهم.

(1) نشر المثاني: 178/2. فهرسة أبي عبد الله الورزازي: 132.

(2) التاودي بن سودة، الفهرسة الكبرى: 127.

(3) المراكشي، إظهار الكمال: 181/1. يقصد بإدريس المولى إدريس الأكبر، من سلالة آل البيت الأطهار، فرّ من موقعة فخ الشهيرة إلى المغرب، وهو دفين مدينة زرهون، وابنه هو المولى إدريس باني مدينة فاس، وأبو يعزى يلنور، دفين منطقة الأطلس، قرب مدينة خنيفرة. وعبد السلام هو ابن مشيش، قطب الأقطاب، شيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عن الجميع.

على سبيل الختم:

هذه القضايا والمباحث تعد قواسم مشتركة، وخيطا ناظما لعلماء المغرب عبر العصور، إلا ما كان من حالات شاذة لا ترقى إلى مستوى الظاهرة، لذا كان لا بد من إثارتها والانتباه إليها وإلى أهميتها، ويمكن الوقوف عند أهمها في هذه الخلاصة من خلال النقاط الآتية:

- لن يدعي أحد بأن نشر العلماء المغاربة للعقيدة الأشعرية كان عديم الجدوى، لأن الواقع يفند هذه الدعوى ويدحضها، بل كانت العقيدة الأشعرية حصنا للمغاربة من الانحرافات العقدية، المنبنية على الإفراط أو التفريط في مجال الصفات الإلهية، أو غيرها.
- العناية الفائقة بالمذهب المالكي رسخت في المجتمع ثقافة الاعتدال، وجعلت المغاربة في منأى عما يمكن تسميته بالشذوذ الفقهي.
- ترتب عن ارتباط المغاربة بالتصوف وبسيرة النبي ﷺ وبسير الصالحين، تهذيب للنفوس وتزكيتها، مما حصنهم من الارتماء في أحضان التطرف الذي برز إبان محطات متفرقة في التاريخ المغربي.
- وتأسيسا على هذه الدراسة، يمكن أن نلفت الانتباه إلى مجموعة من الأمور، أهمها:
- ضرورة إمعان النظر في التراث المغربي عموما، وفي جهود علمائه عبر التاريخ على وجه الخصوص، استلهاما لروح جهودهم، ولب مشروعهم، والتعامل معه بنَفس اجتهادي، ينفتح على مستجدات العصر ومتطلباته.
- يعاني المغرب من عدة أخطار عقدية، أهمها المد الشيعي، وما فيه من غلو وإفراط في حق آل البيت عليهم السلام، دون أن ننسى عقيدة التجسيم والتشبيه الواردة من غلاة الحنابلة، وكل هذه الانحرافات تعرف اليوم انتشارا وذيوعا في العالم كله، خصوصا بين أبناء المسلمين المهاجرين المقيمين في البلدان غير الإسلامية، ومنهم المغاربة، لذا أرى من الضروري تبني مشروع تقريب العقيدة الأشعرية للعامة، عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ونشر مطبوعات وكتيبات خاصة بذلك، مع عدم إغفال أهمية خطب الجمعة والدروس العلمية في المساجد.
- إدماج أهم مرتكزات ومقومات العقيدة الأشعرية، والفقه المالكي، والتصوف السني، والسيرة النبوية، في المقررات الدراسية للتعليم الثانوي، خصوصا في مواد التربية الإسلامية والتاريخ والفكر الإسلامي واللغة العربية.
- ربط الناشئة بعلماء المغرب، وذلك بإطلاق أسمائهم على الشوارع والمؤسسات، وبتخصيص أفلام وثائقية وسينمائية عن حياتهم وسيرهم.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن الأحمر، إسماعيل. بيوتات فاس الكبرى. دار المنصور، الرباط، 1972.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (الجد)، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1407هـ/ 1987م.
- ابن سودة، أبو عبد الله محمد التاودي، الفهرسة الكبرى والصغرى، تحقيق عبد المجيد خيالي، منشورات دار الكتب العلمية، ط.1، 1423هـ/2002م.
- ابن الصديق، أبو الفيض أحمد، تشنيف الأذان، بأدلة استحباب السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام في الصلاة والإقامة والأذان، دار جوامع الكلم، (د.ت).
- ابن الصديق، أبو الفيض أحمد. التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق، الناشر علي رحمي، ط.2.
- ابن الصديق، أبو الفضل عبد الله، إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي، مطبعة سبارطيل، طنجة.
- ابن الصديق، أبو الفضل عبد الله، الإعلام، بأن التصوف من شريعة الإسلام، تعليق طارق العلمي، منشورات الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، 1435هـ/2014م.
- ابن الصديق، أبو الفضل عبد الله، سبيل التوفيق، في ترجمة عبد الله بن الصديق، مطبعة دار البيان، مصر، (د. ت).
- ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، ط.3، 1424هـ/2003م.
- احنانة، يوسف، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1424هـ/2003م.
- الجباري، الخضر بن عبد السلام، الشيخ الحسين بن عمران الجباري الحسني، حياته وآثاره، مطبعة الأمنية بالرباط، ط.1، 2014.
- الدرقاوي، مولاي العربي، بشور الهدية، في مذهب الصوفية. دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1424هـ/2004م.
- شقور، عبد السلام، القاضي عياض الأديب، دار الفكر المغربي، ط.1، 1983.
- عزوزي، حسن، الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1422هـ/2001م.
- العمراني، أحمد الأمين، الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1417هـ/1996م.
- العمراني، بدر، الشيخ عبد الله السنوسي رائد المدرسة الأثرية، دار الحديث الكتانية، ط.1، 1433هـ/2012م.
- العياشي، أبو سالم، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1996.
- القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، (د. ت).
- الفاسي، أبو حامد محمد العربي، مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق حمزة الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد.
- القادري، أبو عبد الله محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، المطبعة الحجرية، فاس، 1310هـ.
- الكتاني، أبو المواهب جعفر بن إدريس، إعلام أئمة الأعلام وأساتيذها بما لنا من المرويات وأسانيدها، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم، ط.1، 1425هـ/2004م.
- الكتاني، أبو المواهب جعفر بن إدريس، الفجر الصادق المفلق في إبطال ترهات الثرثار المتشدق المتفيهق، تحقيق عدنان زهار، دار الكتب العلمية، ط.1، 2009.
- المراكشي، عباس بن إبراهيم، إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال، تحقيق إدريس الشراوطي، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1434هـ/2013م.
- اليوسي، أبو علي الحسن، المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، ط.3، 2011.